اثر العناصر غير اللغوية في صناعة المعنى

قراءة في البلاغة العربية

د . بشرى محمد طه البشير

كلية التربية – الجامعة المستنصرية

المقدمة :

لقد تمتع (المعنى) بمكانه مرموقه في الدراسات البلاغيه . فشكل عند كل البلاغين على اختلاف مشاربهم المذهبية واتجاهاتهم المفكرية . قطب الرحى الذي تدور حوله اراؤهم النظرية . وتتحلق في فلكه تحليلاتهم النصية وكيف لا يكون الامر كذلك والكلام المفيد بمقاصد الانسان هو اشهى غذاء لروحه واطيب قرى لها – على وفق وصف السكاكي – ولعل هذا هو مادفعنا الى استقراء منطقة المعنى من البيت البلاغي قاصدين تسليط الاضواء كشفا لجانب نراه مهمأ من جوانب صناعة المعنى بلاغيا الا و هو اثر العناصر غير اللغوية في هذه الصناعة وبحسب الرؤية البلاغية لهذه العناصر .

ووصلا الى تحقيق هذه الغاية قسمنا البحث الاتي الى فقرتين خصصنا الاولى , بعرض تمهيدي موجز للتعرف بماهية المعنى ووظيفته وفي الفقرة الثانية وجهنا العناية والجهد لتقصي مسالة تلك العناصر واثرها في انتاج المعنى .

الفقرة الأولى التمهيدية :- المعنى : ماهية ووظيفته

لقد نظر الفكر البلاغي الى (المعنى) من زاويتين . في الزاوية الاولى قدر (المعنى) كيانا خارجيا مستقلا عن العقل البشري . وفي الزاوية الثانية عد (المعنى) نتاج عملية الفهم والادراك التي قام بها كل من العقل والنفس البشرية .

يقول حازم القرطاجني ((كل شيء له وجود خارج الذهن فانه اذا ادرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما ادرك منه ....) (1) ونسأل الان كيف يتجلى (المعنى) في الحالتين ؟ من الواضح ان البلاغة العربية قد اقرت بأن (المعنى) في حالته الاولى ما هو الا وجود عياني او حالة شعورية محسوسة والاثنان كالأصول العامة في مسألة (المعنى) وصناعته وأما (المعنى) في حالته الثانية . فما هو الا شيء مصنوع قد اتخذ اللغة هيئة له . وهو كالفرع الخاص والذاتي في مساءلة (المعنى) وصناعته وهنا نعود ادراجنا الى حازم القرطاجني نسمعه ((... فاذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك اقام اللفظ المعبر عنه هيئة تلك الذهنية في افهام السامعين وأذهانهم فصار للمعنى وجود اخر من جهة دلالة الالفاظ)) (2) .

المعنى بحسب ما تقدم هو وجود مستقل مستحدث يعادل الوجود الاصلي للاشياء خارج الذهن الشر فكانه والحال هذه ردة فعل شخصية ازاء الاشياء تتمثل في هيئة لغوية فهو اذن كائن لا يستطيع ان يكون الا عبر الفظ الذي سيغدو اداة او الة يتوصل بها الى اقامة هيئة المعنى بنقله من حالة العدم او ما يشبه العدم الى حالة الوجود الشكلي المحسوس مع اشتراط قيام تلك الاداة (الالفاظ) على اساس من الشراكة المعرفية بين كل من المنتج والمتلقي لان كلا منهما ((بما لهما من خبرة لغوية ناتجة عن معرفة كل منهما المسبقة باللغة تتيح لكل منهما تشكيل الاداء اعتمادا على التوقعات – التي يكون للمستمع او القاريء دور ايجابي لخبرته بالنظام النحوي بالاضافة الى نسق المعاني المستخلصة في اطار اللغة)) (3) .

ان فهم (المعنى) على وفق هذه الطريقة جعل البلاغيين القدماء يحصرون وظيفته في غايتين متآزرتين هما : البيان ذو الوظيفة التواصلية , والجمال ذو الوظيفة التزيينيةلفعل البيان السابق .

فالابانة والكشف والافصاح انما هي مساع توصيلية شكلت عمتد العملية البيانية ((... لان مدار الامر التي يجري اليها القائل والسامع انما هو الفهم والافهام فبأي شيء بلغت الافهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع)) (4) , بل ان السكاكي ليذهب الى نقطة ابعد مما طرحه الجاحظ , جاعلا (الافادة) هي غاية احترازية من وصمة او عيب ((اللاغية)) في

صناعة النصوص فيقول ((ان حكم العقل حال اطلاق اللسان هو ان يفرغ المتكلم في قالب الافادة ما ينطق به تحاشيا عن وصمة اللاغية)).(5)

لقد استقر البيان عن المعنى واحدا ن اجل مهمات النصوص , في الدرس البلاغي العربي حتى رأى جميعهم ان بلوغ درجة الكمال او الاعجاز في هذا البيان انما يأتي متمثلا في كشف المعنى وايضاحه حتى يصل الى النفوس على احسن شيء واسهله .

واذا لنتقلنا الى الجمال فالذي يبدو لقاريء البلاغة ان هذه البلاغة قد تجاوزت في مطالعتها لنصوص حدود لابانة والافهام مطالبة بتحقيق اقصى ملامح الحسن والحلاوة فتحسين طرائق الاداء عدت من المقاصد البلاغية المهمة وقد مثل ابن الاثير هذه التوجه خير تمثيل عندما قال: ((واما قولك ان فائدة وضع اللغة انما هو البيان عند اطلاق اللفظ ... فهذا غير مسلم به ،بل فائدة وضع اللغة هو البيان والتحسين)).

لقد شكل التفريق بين مستويات النصوصمن حيث الحسن او القبح فصولا مهمة من صفحات كل المصنفات البلاغية ((... وصولا لتحديد مقاييس فنية وجمالية في تقويم الادب قوامها الذوق المرهف والاحساس الجمالي الراقي)) . ويكفي ان البلاغة قد اختزلت في عصر من عصورها في حدود ((ايصال المعنى في احسن صوره ...)) لقد ادرك البلاغيون القدماء وهم يقومون بمعالجة مسألة (المعنى) أنهم انما يخوضون في غمار عملية شائكة مترابطة الاطراف فالتعبير اللغوي سواء أكان شفويا ام تحريريا قرانا ام شعرا ام نثرا ما هو الا شكل من اشكال الافعال التواصلية بين مستخدمي اللغة وبالتالي فلا غنى لمن يطالعه من ان يأخذ عددا من العناصر غير اللغوية بالحسبان والعناية ,فالنص أي نص هو ليس المتكلم والمتلقي وطبيعة الافكار التي يراد التعبير عنها والجنس الكلامي وهذا ما حملهم الى الاعتقاد بان الخوض في بيان معاني النص سوف يتطلب منهم نظرة شمولية هي اوسع من ان تقف في حدود وجهي اعملية اللغوية التقليدية اللفظ /المعنى .وان عليهم ان يحيطو بعنايتهم مفردات اخرى من عناصر عملية التوصل ((فهناك عناصر غير لغوية ذات دخل كبير في تحديد المعنى ، بل هي جزء او اجزاء من معنى الكلام كشخصية المتكلم وشخصية

المخاطب وما بنهما من علاقات وما يحيط بالكلام من ملابسات وظروف ذا صله به))

وهو ما سنسعى الى ملاحقة ابرز تجلياته في المصادر البلاغية الرئيسية وبما يسمح به مقام هذا البحث وذلك في الفقرة التالية .

الفقرة الثانية

ايقن البلاغيون العرب ان النظر الى البعد اللغوي معزولا عما سواه من عوامل اخرى غير لغويه مساعده في صناعة المعنى هو امر قاصر .فالمعنى ماهو الا جزء من موقف كلامي عام .ومن هنا لم يكن بامكانهم استقراء جميع الاجراءات والمفاهيم البلاغية ،وعبر عصور تاريخ البلاغة تاريخ البلاغه العربية بمعزل عن امثال هذه الابعاد .وقد تبين لنا بعد جهد من المتابعه والاستقراء .وجود عدد من العوامل غير اللغويه التي صبت في نهر 0المعنى)بلاغيا وهي :

1- البعد النفسي

لقد بات من المركوز في الفكر البلاغي العربي ارتباط عملية الابداع عامة وصناعة المعاني خاصة ارتباطا متينا بالبعد النفسي وبسائر انواع الاستجابات العاطفية فلو ((رجعنا الى موروثنا البلاغي والنقدي ..لوجدنا البلاغيين والنقاد القدامى ومعهم الشعراء والادباء ،قد تحسسو هذه الظاهرة تحساً تاماً واشارو اليها ..كما لانعدم الاشارة اليها عند الفلاسفة المسلمين في القسم الخاص وبالنفس من دراساتهم ..)) فكبد الحقيقة في هذه المسأله عند هذا النفر من المفكرين العرب انما يقوم على طبيعة الشعور النفسي او الاحساس العاطفي ازاء الاشياء المختلفة .ومن هنا لم يجد ابن الرشيق القيرواني اية غضاضة من اشتياق تسمية الشاعر من لحظة الشعور فـ ((انا سمي شاعراًلانة يشعر بما لا يشعر به غيره ...))

ومن جانب اخر فقد بنى البلاغيون مطالعتهم للاثر النفسي في صناعة المعاني على تأسيس أولى يرى ان ((النفس تقبل اللطيف وتنبوعي الغليظ وتقلق من الجاسي البشع وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن الى ما يوافقه وتنفر عما

يضاده ويخالفه ...) ومن ثم فان المعاني يجب ان تأتي متلائمة مع هذها الطبيعة البشرية وهذا الناموس الانساني فـ ((اخراج المعاني في الفاظ حسنة رائقة يلذها السمع ولا ينبو عنها الطبع خير من اخراجها في الفاظ قبيحة مستكرهة ...))

لقد حرص البلاغيون وهم يتعرضون لمسالة الصناعة المعنوية وم زاوية نفسية ان يتطلعو صوب طرفي العملية اللغوية المبدع والمتلقي معا المبدع والواقع تحت تأثير انواع من التوترات النفسية التي تدفعه صوب انشاء النص والمتلقي المتقبل لالوان من المثيرات العاطفية التي يسقطها علية النص ايضا .وتكاد المصادر البلاغية والنقدية تعج بالعديد من الحكايات والروايات والشواهد على اختلاف ازمانها وتنوع ابطالها وكلها يوثق هذه القضية ولعل كلا من عبد القاهر الجرجاني (القرن الخامس) وحازم القرطاجني (القرن السابع)كانا اجلى شاهد واصدق دليل على مثل ذاك التوجه في صناعة المعاني فالاثنان قد اولا البعد النفسي ان قلنا ان جل عملهما البلاغي اصولا وقواعد ومفاهيم وشرح او تفسير انما قام على اساس من الايمان بهذه الفكرة فبعد القاهر مثلا اقام نظريتة في (النظم) على بواعث نفسية فعلى صعيد النظرية ليس النظم رصفا وترتيبا للالفاظ والجمل والعبارات على وجه الاعتباط او الصدفه بل هو ترتيب مقصود محكوم بوعي نفسي ودافع عاطفي فـ ((هذا الحكم اعنى الاختصاص في الترتيب يقع في الالفاظ مرتبا على المعاني المرتبة في النفس ...) وان عمل المبدع عند خلقه لاشكال المعاني هو اقتفاء وتتبع لما في النفس ((تقتفي في نظمها اثار المعاني وتريبها على حسب ترتيب المعاني في النفس)) واما على صعيد التطبق والتحليل النصي فكان عبد القاهر من انضج البلاغيين العرب في استثمار هذه المسأله وابعدهم غورا فجاءت فصول كتابة (دلائل الاعجاز)خير شاهد ،فهو على سبيل المثال عندما يقارب نصوصا كي يكسف عن مواطن البلاغة فيها يعلق على حالة تقديم الفاعل على فعلة: ((انه لا يأتي بلاسم معرى من العوامل الا لحديث قد نوى اسناده الية واذا كان كذلك فاذا قلت : عبد الله ،فقد اشعرت قلبه بذلك انك قد اردت الحديث عنه فاذا جئت بالحديث فقلت مثلا :قام او قلت خرج .. فقد علم ما جئت به وقد وطأت وقدمت الاعلام فيه فدخل على القلب دخول المأنوس به وقلبه قبول المهيأ له المطمئن اليه وذلك لا محال اشد لثبوته وانفى للشبهة وامنع للشك ..)) وعلى ذلك يمكن القول بان التقديم محفز نفسي يقدم المعنى محفوفا بما يجعلة محل عناية واقبال نفسي عند كل من

المبدع والملتقي واللذين سينظران الية من خلال تلك المؤثرات النفسية التي انجزها التغيير في بنية النص

واما حازم القرطجاني فقد تطورت لدية البلاغية في تقييم البعد النفسي فحولته الى قواعد مطرده وضوابط محكمة للعملية الابداعية عامة وللصناعة المعنوية خاصة .ويجب هنا ان لا ننسى ان حازما هو مزيج الفكرين البلاغي والفلسفي وعلية فليس بالمستغرب علية ان ينحو نحوا نفسيا عند قراءةته لـ(العوامل المهيئة لقول الشعر) مثلا .فذهب الى تأكيد العلاقة الرابطة بين صناعة المعنى من جهة والانفعالات النفسية من جهة اخرى ،

فانتهى الى ان الشعر (والادب عامة) لا يتأتى نظمة الا بحصول ثلاثة اشياء هي المهيئات والادوات والبواعث فكان بالبواعث الانفعالات النفسية الناتجه عن الغزائر البشرية من رغبة او طمع من لذه او الم وغيرها من التوترات النفسية والمواقف العاطفية فالشاعر مثلا تحت تأثير احد البواعث النفسية والمواقف العاطفية فالشاعر مثلا تحت تأثير احد البواعث النفسية الرئيسية كما يراها حازم وهو باعث (الوجد والاشتياق) يعمد الى ان ((يصوغ مقالا فيه حال احبابة ويقيم المعاني المحاكية لهم في الاذهان مقام صورهم ...حتة يجعل المعاني امثلة لهم ولاحوالهم))

لقد كان النفسي في المدونة البلاغية ذا حضور قوي وغاعل في كل مراحل انتاج المعنى بدءا بالمقدمات وانتهاء بصورة اخراجه النهائية فهذا ابو هلال العسكري على سبيل المثال يتقدم بنصيحة الى المبدع قائلا : ((واعمله ما دمت في شباب نشاطك فاذا غشيك الفتور ووتخونك الملاك فامسك والخواطر كاينابيع يسقي منها شيء بعد شيء فتجد من الري وتنال اربك من المنفعه فاذا اكثرت عليها نضب ماؤها وقل عنك غناؤها))

فاذا ما اكتملت صورة المعنى تشوقت نحوها النفس الملتقيله باشتياق وهمة وما ذلك الا لان ((الشيء اذ ينل بعد الطلب له او الاشتياق اليه ومعناه الحنين نحوه كان نيله احلى ،وبالميزة اولى فكان موقعه من النفس اجل والطف فكانت به اضن واشغف))

وما يكاد البحث البلاغي في هذه المسأله ليتوقف عند حدود ما ذكرنا ولكنه يتجاوزها حتى يصل اعتاب الفنون واليتها المحتلفه وهي في مجموعها وسائل لغويه تجسد حركة المعنى ولكن ليس بعيدا عن النفس اذ المعنى القائم بالنفس يدل عليه تاره بالصوت وتاره بالتركيب وجمع الالفاظ بعضها الى بعض وتارة بتشكيله في صوره بديله او لازمة فالمبدع ((يأتي الى معنى فيبرزه من عدة صور تارة بلفظ الاستعارة وطورا بلفظ الايجاز واونه بلفظ الارداف وحينا بلفظ الحقيقه))

والمعنى عبركل هذه المستويات اللغوية لن يكون الا واقعا تحت سلطة العامل النفسي ،ومنشدا الى كل حركة من حركاته فعلى صعيد المستوى الصوتي ادرك البلاغيون جميعا ((ان لجرس اللفظة ووقع تأليف اصوات حروفها وحركاتها على الاذن دورا هاما في اثارة الانفعال المناسب ..كما ان له ايحاء نفسيا خاصى لدى مخيلة المتلقي والمتكلم عل حد سواء))فلقد تنبه عبد القاهر على سبيل المثال الى اثر البعد النفسي في صناعه المعنى القائم على التجنيس اذ رأى ان المتلقي حين تقع عينه على عباره مجنسه لايكاد يلحظ عند القراءه الاولى الا الفاظا ذات هيئات واصوات تتماثل كلية او تكاد ان تقترب من التماثل حتى اذا وصل في عمليه القراءة الى نقطة هي ابعد غورا من الرؤية البصرية منتقلا الى معالجة الفكرية سوف يقع نفسه موقعا مقبولا محدثا فيها الهزة والاريحة والاحساس بلذة الفهم والاكتشاف وفي المستوى التركيبي نقرا على سبيل المثال اجماع البلاغيين على اثر البعد النفسي في صناعة المعنى المتمثل بواسطة الالتفاف فهذا قدامة بن جعفر يجد في الالتفاف نعتا من نعوت المعاني واسلوبا احتراسيا يلجأ اليه المتكلم ابان صناعتة للمعاني وذلك عندما يداخله شك او ترقب لسؤال او ما شابه من ردود افعال نفسيه واوضاع انفعاليه تكسر المتوقع لديه يقول : ((ومن النعوت المعاني الالتفات وهو ان يكون الشاعر اخذا في معنى فكأنه يعترضه اما شك فيه او ظن بان رادا يردعليه قوله او سائلا يسأله عن سببه فيعود راجعا الى ما قدمه فاما ان يؤكد او يذكر سببه او يحل الشك فيه)) ومن جانب اخر يتعلق بالذات الملتقيه سيعد الالتقاد عن البلاغيين وسيله لغويه تضمن للمعاني اعلى مراتب البلاغة والكمال وذلك بسبب ما يستطيع انجازه من اثر نفسي وردة فعل عاطفيه فهو اذا يخالط المعنى ((كساه فضل بهاء ورونق واورث السامع زيادة هزة ونشاط ووجد عنده من

القبول ارفع منزله)) واخيرا وفي لمستوى التصويري البياني فان من المركوز في الفكر البلاغي قوة الاواصر الرابطة البعد النفسي والمعاني المصورة فهي اشكال لغويه جاءت كمعادلات عاطفية لما يراه الانسان المبدع في الكون من اشياء وما يسقط عليه من احداث وما يعتلج في دواخله من مشاعر وهذا ما جعل المعاني المصوره قادرة على احداث حاله من الانس والارتياح لدى النفوس فـ ((انس النفوس موقوف على تخرجها من خفي الى جلي وتأتيها بصريح بعد مكنى وان تردها في الشيء تعلمها اياه الى شيء هي بشأنه اعلم وثقتها به في المعرفه احكم))

2- البعد القصدي (القصد والمقاصد)

يقول ابن خلدون في مقدمتة : ((اعلم الكلام الذي هو العباره والخطاب انما سره وروحه في افادة المعنى)) يشير ابن خلدون في عبارته هذه الى معطى مهم من معطيات الفكر اللغوي العربي عامة والبلاغي خاصه وهو ما تمثل في النظر الى وظيفة النص اللغوي أي كان جنسه فـ ((الكلام انما هو مبني على الفائدة في حقيقته ومجازه))ان ربط غاية النص بافادة المعنى اقتضى ان ((تتصدر الابانة والافهام سلم الوظائف التي تؤديها اللغة وان يبقى النص الادبي وسيله ابلاغ بالدرجه الاولى ...) ولكن هذا التوجه الوظيفي النفعي للنص لم يمنعه من انجاز وظيفة اخرى هي على الجانب الاخر للنفعية واعنى بذلك الوظيفةالجمالية فايصال المعنى بلاغيا يجب ان يكون في احسن صورة وابهى شكل

لقد ترتب عن النظر الى النص اللغوي نظرة تحدد قيمتة بقدرتة على صناعة المعنى والاحاطة بجوانبة والايفاء بلوازمة قيام (القصد) مفهوما مستقرا في المدونه البلاغية العربية فلقد ثبت ان ((الخبر وسائر معاني الكلام معان ينشئها الانسان ..فاعلم ان الفائدة في العلم بها واقعة من المنشيء لها وصادرة عن القاصد اليها ...)) فاذا قلنا مثلا في الفعل انه موضوع ليقصد به الخبر فان القصد في هذه الحال لا يتوجه الى الاعلام او الانباء بالخبر في نفسه وجنسه ومن حيث هو فعل قائم بذاته انما القصد ينح والى تركيبه وضمه الى اسم اخر حتى يعقل منه ومن الاسم سوية ذلك القص الذي يأتي ((واقعا منك ايها المتكلم)) ولا يكاد (بالمقصد) ان يكون وقفا على البلاغيين من اصحاب

المدرسة الاكاديمية كعبد القاهر الجرجاني ومن حذا حذوه بل انه ليمتد حتى يستقر عند اتباع المدرسه البلاغية الادبية فهذا ابن رشيق مثلا وفي معرض حديثه عن اداب الشاعر يؤكد ا ناول ما يحتاج اليه الشاعر عن صناعة الشعر هو العلم بالمقاصد (32) –بحسب ما تقدم – هم مصدر العلم بالمعاني التي لا يكفي لبعثها وجود لغة بوصفها علامات او اشارات قد اتفق عليها افراد البيئة اللغوية المحددة وهو ما اصطلح عليه (بالموضعية) , ولكن قيام المعني لم يتم الا بمراعاة المقاصد فالكلام ((... بعد وقوع التواضع يحتاج الى قصد المتكلم له باستعماله فيما قررته المواضعة ... فالمواضعة تجري مجرى شحذ السكين وتقويم الالات , والقصد يجري بحسب ذلك الاعداد)) (33)

ولعل من نافلة القول ان نشير هنا الى , ان مفهوم (القصد او المقاصد) قد تسرب الى الفكر البلاغي العربي عن طريق ثلاثة مسارب مهمه – كما نعتقد – الاول هو النظرية النحوية العربية ممثلة بابرز مؤسسيها وهو سيبوبه في مصنفه (الكتاب) الذي لم يرد له صاحبه ان يكون كتاب نحو تقليدي يعنى ببيان ان الفاعل مرفوع والمفعول به منصوب ونحو ذلك انما طمح الى توجيهه وجهة دلالية تخص صناعة المعنى عبر النظام النحوي العربي , وهو ما سمح لمفهوم (اتساع الكلام) ان يصبح مصطلحا تردد صداه كثيرا في انحاء (الكتاب) مما دفع البعض من قرائه الى وصف عمل سيبوبه في كتابه بانه تناول لمقاصد العرب وتنبيه الى طرائقها في صناعة المعنى . ويقول ابو اسحق الشاطبي ((وكتاب سيبوبه يتعلم منه النظر والتفتيش والمراد بذلك ان سيبوبه وان تكلم في النحو فقد نبه في كلامه على مقاصد العرب وانحاء تصرفها في ... معانيها ... حتى انه احتوى على علم المعاني والبيان ووجوه تصرفات الالفاظ في المعاني)) (34) ومن المعلوم ان البلاغة خصت هذين العلمين الاخيرين المعاني والبيان – بصناعة المعنى . اما المصدر الثاني الذي خرجت منه فكرة (القصد) صوب تخوم البلاغة العربية , فهو علم الكلام وفرقه المختلفة ونخص منهم في هذا المقال فرقة المعتزلة التي انتمى اليها وتغذى بافكارها العديد من البلاغيين , فكانت موجها مهما للبحث البلاغي العربي فقلد قامت نظرية المعنى والتأويل عند هؤلاء على دعامتين اساسيتين هما : المواضعة والقصد فمها عنصران مهمان يحققان عند ارتباطهما (المعنى) :فالكلام – من وجه نظر اعتزالية- ((قد يحصل من غير قصد فلا يدل ومع القصد فيدل ويفيد , فكما ان المواضعة لابد

منها فكذلك المقاصد التي بها يصير الكلام مطابقا للمواضعة))(35) فالذي يفهم من قول القاضي عبد الجبار ان معرفة المقاصد ضرورية لجعل الكلام مفيدا ونافعا ذا فائدة , اما المواضعة فهي على اهميتها غير كافية من اعتبار القصد , بل ان هذا العالم المعتزلي ليذهب الى نقطة ابعد فيقرر انه ((لا يحسن اتباع اهل اللغة في مواضعاتهم الا بعد العلم بمقاصدهم فيما وضعوه من اللغة ...)) (36) اما المسرب الثالث فتراه مجسدا في علم الفلسفة وما طبعه من اثار فكرية متنوعة وسمت البحث البلاغي العربي , لاسيما عند علم من اعلامه , جمع بين الفسلفة والبلاغة في جراب واحد , الا وهو حازم القرطاجني فلقد وظف حازم مفهوم (المقاصد) في تجلية اكثر من موضوع من موضوعات كتابه .

فعلى سبيل المثال عندما يتطرق الى طرق العلم باقتباس امعاني وكيفية اجتلابها فانه ينطلق من المقاصد بوصفها مصادر اولية لبواعث القول من الشعر , فـ ((الارتياح للامر السار اذا كان صادرا عن قاصد لذلك فحرك الى مدح , والارتماض للامر الضار اذا كان صادرا عن قاصد لذلك اغضب فحرك الى الذم ...))(37) . وعندما يقف مقارنا بين صناعتي الشعر والخطابة نجده يأخذ من (القصد) معيارا للتفريق وكذلك للجمع بينهما . فالنص لا يكون شعرا الا اذا صد قاصده التخيل واما اذا قصد فيه الاقناع صار خطابه , ومع ذلك فالقصد في كلا الامرين واحد اذ كان ((القصد في التخييل والاقناع حمل النفوس على فعل شيء او اعتقاده او التخلي عن فعله واعتقاده ...)) (38) وفي موضع قراءته لاي المعاني هي اقوى في الانتساب الى طرائق الشعر وعالمه فانه ينتهي الى ان المعاني المنبعثه عما اسماه بالمقاصد او المدارك الجمهورية هي اكثر المعاني التصاقا بالشعر وواقعه لكونها اشد علقة بالانسان وحياته في حلوها ومرها وفي خيرها وشرها . (39)

ان (القصد) – كما بدا لنا – هو قانون داخلي ذاتي يدخل في صلب صناعة النص فيعمل على هندسة بنائه الشكلي , وتحديد جنسه وتوجيه ابعاده المعنوية وانجاز غايته الوظيفية ,وهذا ما جعله يمارس سلطويا لا يمكن الانعتاق منه في أي لحظة من لحظات ابداع المعنى فبمقدار مجيئه منسجما ومتناغما مع (المقاصد) ارتفعت منزلته درجة في سلم البلاغة والعكس بالعكس وهذا ما يعني ان (المقاصد) قد تجاوزت حدود الماسهم او المشارك في صناعة المعنى

لتصل الى تخوم المعيار المقوم للمعنى نفسه جودة او رداءة , لاننا ((اذا ما اخذنا هوية المتكلم ومقصده والوظيفة التي هو عليها نرى ان المعنى يتعدل ويتدفق ويغتني)) (40) فعندما قرأ الجاحظ (النوادر) – على سبيل المثل – نوعا ادبيا , انطلق في حكمه النقدي عليها بالجودة , من خلال ما تتطلبه مقصدية الاضحاك والتندر من شيوع بعض الملامح البنائية السلبية كالسخف والعجمة واللحن , وهذا مايحقق للنوادر بلاغتها ((... فاذا دخلت انما اضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التي فيه حروف الاعراب ... وحولته الى صورة الفاظ الاعراب الفصحاء واهل المرؤة .. انقلب المعنى مع انقلاب نظمه وتبدلت صورته)) (41) ولا يقف الامر عند هذا الحد , بل ان عدم احترام (القصد) ومراعاته في بناء الصورة المعنوية يؤدي الى نتيجة عكسية عند المتلقي فاذا كان القصد يرمي الى الضحك والالهاء والمزاح ((فابدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذي وضع على ان يسر النفوس يكربها ويأخذ باكامها)) (42)

من الواضح ان التعامل مع المعنى من زاوية البعد القصدي قد افرز قواعد الزمت طرفي العملية الابداعية – المبدع والملتقي – بمجموعة من الاجراءات البلاغية سواء على صعيد الالفاظ ام المعاني , فمما تعرض اليه البلاغيون جميعا في هذا المجال ان الشاعر على سبيل المثال اذا تقصد غرضا معينا فرض عليه ذلك القصد نمطا خاصا في صياغة الالفاظ والمعاني ((فاذا اردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا والمعنى رشيقا واكثر من بيان الصابة وتوجع الكابة وقلق الشوق ..واذا اخذت في مدح سيد ذي اياد , فاشهر مناقبه واظهر مناسبه .. وشرف مقامه .. واياك ان تشين شعرك بالالفاظ الرزية ..))(43)

وفي باب (حسن الابتداء وجودة المطالع) على سبيل المثال (المقاصد) عملية البناء لتقرر قوانينها الممثلة في وجوب التوازن بين القصد من جهة وغرض القصيدة ونية الابتداء من جهة اخرى ,فان كان قصد الشاعر متجها الى غرض المدائح او التهاني , وجب على عند ذاك ((ان يحترز... مما يتطير منه .. كالمخاطبة بالبكاء ووصف اقفار الديار .. ونعي الشباب وذم الزمان .. فان الكلام اذا كان مؤسسا على هذا المثال تطير منه سامعه)) (44)

ولاشك في ان خروج المعاني خروجا مطابقا للمصدية سيعمل على اثرئها وبالتالي نجاحها في التأثير على الملتقى وضمان قيمتها البلاغية والجمالية معا ,

وفي هذا كله وصل الى كمال الصنعة لانه ((لا يكمل لصناعة الكلام الا من يكمل لاصابة المعنى وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال)) (45)

3. البعد المقامي :-

لقد وعى البلاغون العرب اهمية هذا البعد في صناعة المعنى فكان لهذا الوعي الدقيق حضوره البارز فيما دونوه من مصنفات , توجهوا فيها الى تأسيس مفهوم متميز للمقامات يقوم على اساس من الربط بين المعنى والمقام , يصبح من خلالها ذلك الربط او التناسب او التطابق معيارا بلاغيا لتقدير كل الفائدة والحسن مما يعني قبوله في عالم البلاغة والعكس بالعكس بالمعنى ((ليس يشرف بان يكون من عاني الخاصة , وكذلك ليس يتصنع بان يكون من معاني العامة , وانما مدار ذلك الشرف على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال)) (46) كما ان ((مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال وعلى لا انطباقه))(47) وبذلك اصبح (المقام) او (مقتضى الحال) في تسمية مرادفه للمقام , مكونا مهما في بناء النظرية البلاغية العربية على امتداد زمانها , ومع تنوع مشارب اصحابها ان كانوا من اتباع المدرسة الكلامية او المدرسة الادبية كما ادخل (المقام) او (مقتضى الحال) عنصرا من عناصرا اشهر تعريف للبلاغة عامة , وعلم من المعاني خاصة مع امكانية حضوره ضمنيا في كل من علمي البيان والبديع . يقول القزويني في هذا الصدد ((وما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى لحال مع فصاحته ومقتضى الحال مختلف , فان مقامات الكلام متفاوته ..)(48) اما علم المعاني فهو على وفق اخر صورة استقر عليها حلى يومنا هذا ((هو علم يعرف به احوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال)) .(49)

ان عناية البلاغيين بمسألة الربط بين البعد المقامي وصناعة المعنى لا تعني بالضرورة ان فكرة الملاءمة بين المقام والمقال , هي من بنات افكار البلاغيين انفسهم وان المفهوم برمته هو زرع البلاغة العربية . ان تقصي حركة هذه الفكرة تؤكد لنا كونها قديمة ولم يبتدعها الفكر البلاغي العربي , وتوثيق ذلك انما يكون بالمسلمات والوثائق التاريخيه معا . من جهة المسلمات ,فمن البدائه القول بان كل انجاز لغوي يتجاوز قائله الى متلقيه قصد الفائدة ,

لابد ان يخضع لشروط ذلك القائل اولا وبما يجعل الفعل مقبولا عند متلقيه بسبب مناسبته لحالته ثانيا . ولولا تحقيق الامرين معا لما نجحت عملية التواصل اللغوي . اما الوثائق التاريخية فانها تشير الى بيئات فكرية متنوعة انتعشت في مؤسساتها قضية مناسبة المقال للمقام . ففي التراث اليوناني – الذي اطلع عليه المفكرون العرب لا سيما الفلاسفة منهم – تظهر هذه المسألة جلية , وتبرز بشكل خاص في كتاب (الخطابة) لارسطو اذ فصل فيه القول في انواع من انواع الخطب اليونانية ومقامتها محددا لكل نوع متطلباته المعنوية والبنائية , فالخطب الاستئارية مثلا تختلف في متطلباتها الابداعية عن تلك الخطب القضائية لتباين المقامات (50) , وفي التراث العربي نصادف موضوع المناسبة بين المقام المقال بناء ومعنى – في مظان فكرة متنوعة . فقد شاعت هذه القضية في بيئة النحو والنحاة العرب , فقاريء ((الكتاب)) لسيبوبه مثلا يلحظ انه قد اعتنى عناية جلية في وصف المقام الذي يجري في الكلام واستعماله ((وما يلابس هذا الاستعمال من حال المخاطب وحال المتكلم وموضوع الكلام وقد هداه هذا الاتساع الى استكناه البنية الجوانية للتركيب النحوي ورسم خطوط هادية في تعلم العربية تعلما يضع كل تركيب موضعه ويعرف لكل مقال مقامه)) (51) وعند علم اخر من علماء النحو العربي يبرز المقام موجها من موجهات بنية المقال وعناه , فهذا ابن جني يعلل في خصائصه حذف الصفة في قولهم :سير عليه ليل . وهم يريدون: ليل طويل فيقول : ((وكان هذا انما حذفت فيه الصفة لما دل من الحال على موضعها وذلك انك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله : طويل او نحو ذلك . وانت تحس ذلك من نفسك اذا تأملته وذلك ان تكون في مدح انسان والثناء عليه ..)) (52) وفي كتب النقد القديم , وان كان الخط الفاصل بينها وبين كتب البلاغة دقيقا وقد لا يلحظ احيانا – نعثر على (القراءة المقامية) متقدمه على انواع القراءات الاخرلدى اصطحابها فابن قتية مثلا في الشعر والشعراء يفسر لنا طبيعة المقدمة الطللية للقصيدة العربية فيقدم تفسيرا مبينا على مطابقة المقدمة لمقام الانسان عامة والعربي خاصة ومقتضى حاله فما تحتويه تلك المقدمة من اشارات معنوية الى ديار الاحبة , ووصف فيه الله محبة العزل والف النساء . وهذا الشاعر كثير عزة اتهمه النقاد بالغفلة وماذا الا انه لم يراع مقام العشق , فلم تطابق صورته الشعرية مقتضى حال العاشق والمعشوق معا عندما قال مخاطبا: (53)

الا ليتنا عز كنا لذي غنى   بعيرين في الخلاء ونعزب
نكون لذي مال كثير مغفل   فلا هو يرعانا و نحن نطلب
اذا ما وردنا منهلا هاج اهله   الينا فلا ننفك نرمى ونضرب

فقالت عزة : اردت بي الشفاء الطويل ومن المنية ما هو اوطأ من هذه الحال. اما اعتراض الامدي في موازنته على صورة ابي تمام في قوله مادحا:

رقيق حواشي الحلم لو ان حلمه   بكيفك ما ماريت انه برد

فهم قائم على قادعة عدم تحقيق الانسجام بين دلالة الصورة الشعرية والمقام المنبثق عن مجموعة من العادات والاعراف الجاهلية والتي لا ترى في الحلم الا الوصف بالعظم والرجحان والثقل والرزانة , اما ان يكون ذا رقة وشفافية فذلك ما يتنافى ومقتضى حال الانسان العربي وما يستسيغه طبعه .

وفي بيئة شراح الدووابن نعثر ايضا على لمحات من موضوع البعد المقامي واثره في صناعة المعنى اثنا عملهم في قراءة النصوص وتوجيه معاينها . ففي شرح ديوان الحماسة لابي تمام , نتوقف عند قراءة عني صاحبها المرزوقي باستخدام معادلة المقال والمقال وسيلة لاخراج المعنى والكشف عن مستودره , فعند اول بيت من مختارات ابي تمام قال بعض شعراء بلعنبر :

لو كنت من مازن لم تستبح ابلي   بنو الليقظة من ذهل بن شيبانا

يصرح المرزوقي ببطلان قراءة من سبقوه من الشراح الذين ذهبوا الى ان هذا الشاعر هجا ومدح بني مازن , مقدما قراءته الخاصة التي صدر فيها عن ملاحظة وايعة لدور المقام الذي احاط بصناعة هذا المعنى فينطلق من معرفة دقيقة بمقتضى حال الشاعر فهو اولا يمت بصلة قرابة الى بني مازن فـ ((مازن بن مالك بن عمر بن تميم هو بنو اخي العنبر بن عمرو بن تميم ...)) ومن جهة ثانية فهو – الشاعر – محكوم بسلطة التقاليد البدوية التي تصيره جزءا لا يتجزأ من قومه فما يلحق بهم سيلحق به ايضا وبذلك سيلعب البعد الماقمي دورا مهما في تحويل المعنى وجهة جديدة بعيدة كل البعد عن دلالتي ((المدح)) و ((الهجاء)) يقول المرزوقي : ((فمدح هذا الشاعر لهم (بني مازن

) يجري مجرى الافتخار بهم)) اما فيما يخص قومه فقد ((قصد الشاعر .. الى بعث قومه على الانتقام له من اعدائه ومهتضميه وتهيجهم وهزهم لا ذمهم , وكيف يذمهم ووبال الذم راجع اليه ..)) (54) .

او الوسط الفكري الاخر الذي نهل من مقولة (لكل مقال مقال) فكان علماء الكلام لا سيما المعتزلة منهم والذين عنوا عناية خاصة بهذا الجانب . ولعل ما جاء صحيفة بشر بن المعتمر – وهو احد من اعلامهم في بغداد – من فقرات بليغة تجلي هذه المسالة يعد باكورة تصورهم الشامل للتوصل اللغوي البليغ القائم على ضرورة ربط المقال بالمقام وملائمته لمقتضى (55) وهو ما سيتردد صداه عميقا في انحاء النظرية الجمالية البلاغية عند الجاحظ . لقد مثلت نظرية المقامات حلقة الوصل بين كل تلك الاتجاهات الفكرية والبلاغية الع8ربية التي وفقت في تقديم قراءة عميقة ومستعصية لكل تفاصيل البعد المقامي , حتى غدا تحقيق البلاغة نفسها مرهونا به ولكن المقصود بالمقام او مقتضى الحال ؟ ان يفهم من الدرس البلاغي يفضي الى ان القصد من هو مجموعة الظروف المحيطة بإنتاج النص شكلا ومعنى او طبيعة الاعتبار المناسب الذي يستدعى بناء لغويا معينا اذ لكل اعتبار ناتج نصي يتوافق معه . ومع عملية النظر الى المقولات البلاغية في موضوع (المقام) يظهر لنا ان البلاغيين لم يحصروا مفهومه في اطار نمط من انماط الظروف الا الاعتبارات , بل ترطوا الباب مشرعا لحركة المؤصل البلاغي كي يتحرك باتجاهات عدة ومتنوعة , ولكننا نستطيع ان نجمل المقامات البلاغية في لونين رئيسين : 1. المقام الحالي الانساني و 2. المقام السياقي اللغوي . اما الاول منهما , فهو ضرب من المقام غير اللغوي أي لا يقوم على عناصر لغوية , بل ينطلق من مناسبات انسانية وينبعث عن مقتضيات تتعلق بالذات البشرية المساهمة في صناعة النص ومعناه انتاجا وتلقيا . وهنا سيتم استدعاء كل من المبدع منتجا والمتلقي متلقيا شريكين عن النظر الى البعد المقامي والذي لا يمكن تحقيقه الا بالنظر اليهما معا فغياب أي منهما سيتنافى مع مراعاة المقام وبالتالي الى اخفاق العملية الابداعية كلية .

ان القول بأن البعد المقامي يتكيء على ثنائية المبدع والمتلقي , تنفي مقوله ((شاعت بين الدارسين وهي ان البلاغة القديمة لم تكن لها عناية الا بطرف

واحد من طرفي الاتصال وهو المتلقي وان الحال والمقام قد ارتباطا به ارتباطا لزوميا)) (56) فلقد تنبهت البلاغة العربية الى ضرورة قيام التناسب بين مقام المبدع ومقاله , وتحقق التطابق بين مقتصى حاله ومعانيه , فمراعاة جميع حالاته الاداكية والثقافية والاجتماعية ابان العملية الابداعية سيعنى بلاغة النص والعكس سوف يحيله الى نوع من اللغو الذي لا يدخل في دائرة البلاغة . فعندما ابدع ارؤ القيس صورته التشبيهية في قوله :

وتعطوا برخص غير شثن كأنه أساريع ظبي او مساويك اسحل

قامت معاينة في تشبيه البنان بالاسروعة وهي دودة تكون في الرمل مطابقة لمقتضى شخصيته البدوية ومزاجها الذوقي . وعندما اراد شاعر اخر من الشعراء المولدين ان يدور حول المعنى نفسه قال :

اشرن على خوف باغصان فضة مقومة اثمارهن عقيق

ان معنى بن المعتز في صفة الاصابع جاء متناغما مع مقامه الاخذ باسباب التحضر في العصر العباسي فـ ((قد اتت القدماء بتشبيهات رغب المولدون .. عن مثلها استبشاعا لها وان كانت بديعة في ذاتها))(57)

وعندما امتدح الشاعر ابن قيس الرقيات عبد الملك بن مروان في قوله :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

غضب منه عبد الملك , وقال : لقد قلت في مصعب :

انما مصعب شهاب من اللـ ـه تجلت عن وجهه الظلماء

فاعطيته المدح بكشف الغم وجلاء الظلم ... واعطيتني من المدح مالا فخر فيه , يأتي ابو هلال على ذكر هذه المحادثة في معرض حديثه عن عيوب المعاني لمخالفتها الاعراف الاجتماعية العربية (58) فابن قيس الرقيات كان متلائما مع مقتضى اعرافه وتقاليده العربية التي تشكل هويته الانسانية في مدحه لمصعب فمدح كبار القوم ومنهم الخلفاء يجب ان يكون على وفق ما قاله حازم القرطاجني ((بافضل ما يتفرع من الفضائل واجلها واكملها كنصر الدين

وافاضة العدل وحسن السيرة والسياسة والعام والحلم والنقضى والورع والرأفة والرحمة والكرم والهيئة وما شبه ذلك ..)) (59) ولكن حالة التناسب هذه لم تتحقق في المرة الثانية عندما امتدح الخليفة عبدالملك , فغضب الممدوح واخفق المعنى في ارتقاء درجات البلاغة . ومما جاء في ((الموشح)) للمرزباني في هذا الصدد , قصة لقاء الشاعر الكميت مع ذي الرمة في الكوفة , فبعد استماع الاخير لاحدى قصائد الكميت علق عليها بقوله ((... ولم تصف كما وصفت ولا كما شبهت)) فقال له الكميت ((وتدري لم ذاك ... لانك تشبه شيئا قد رأيته بعينك وانا اشبه ما وصف لي ولم اره بعيني ...))(60). وتذكرنا في هذه الحكاية بواقعة شهيرة وقعت في السياق نفسه , فقد سئل ابن الرومي لماذا لا تأتي تشبيهاته كتشبيهات ابن المعتز , فجاءت اجابته مستندة على قراءة مقام ودوره في صناعة المعنى . فابن المعتز لانه خليفة ابن خليفة – كان معنيا بتصوير مفردات مقامه –مقام الترف والبلاط – اما هو , ولانه من طبقة العوام , فينتزع صوره من مفردات مقتضى حالهم .

ان كلام الناس – كما يقول الجاحظ : ((في طبقات كما ان الناس انفسهم في طبقات)) (61) وان كان الامر كذلك فلقد لزم قيام التباين في المعاني بحسب تباين مقامات المبدعين و ((اختلاف الطبائع وتركيب الخلق , فان سلامة اللفظ (مثلا) تتبع الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ... وترى الجافي الجلف منهم كز الالفاظ معقد الكلام وعر الخطاب ...))(62) وقد تتدخل هنا ايضا عاطفة المبدع قوة او ضعفا لتمارس دورا في تشكيل مقامه وصياغة مقتضى حاله , وهذا بدوره سيكون سلطة موجهه للمعنى تسمه بوسمها رقة او صلابة فرقة المعاني ((اكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم والغزل المتهالك , فان اتفقت .. الدماثة والصبابة , وانضاف الطبع مع الغزل , فقد جمعت لك الرقة من اطرافها)) (63) والى جانب العواطف الوجدانية , قد يقع المبدع تحت تأثير الوان اخرى من المؤثرات التي تصوغ مقامه صياغة معينة فيظهر اثر ذلك على معانيه كالغنى او الفقر كما يرى ابن رشيق ((اذا صنع قصيدة ... نقحها وانعم النظر فيها على مهل فاذا كان مع ذلك طمع قوي انبعاثها ... وجاءت ... وفي نهايتها محكمة)) . اما االفقر فهو افة الشعر لان الشاعر((اذا كان فقيرا مضطرا ... لم يتسع في بلوغ مراده ولا بلوغ مجهود نيته , لما يحفزه من الحاجة والضرورة فجاء دون عادته ... وربما قصر عمن هو دونه بكثير

...))(64) ولذلك نجد ان ناقدا كابن قتيبة مثلا يتحسس تفاوتا فنيا في مدائح شاعر كالكميت فيجده مجيدا في معانيه عند مدحه بني امية وان كان منحرفا منهم , في حين تفشل معاني مدائحه في ال طالب في بلوغ رتبة الجودة وان كان متشيعا لهم وما علة ذلك الا مقتضى حال الكميت الذي كان طامعا في عطايا بني امية مؤثرا لعاجل الدنيا على اجل الاخرة(65)

ولا تكتفي البلاغة برصد ما يحيط بالذات المبدعة ممن احوالها العاطفية والفكرية والاخلاقية والبيئية بعملية صناعة النصع ومعانيه , بل انها لتكشف عن اثر المهنة او الحرفة التي يزاولها المبدع فيما يصوغه من معان وصور ولعل اقدم اشارة الى هذه المسألة وردت عند الجاحظ في قوله ((... ولكل صناعة الفاظ قد حصلت لاهلها بعد امتحان سواها , فلم تلزق بصناعتهم الا بعد ان كانت مشاكلا بينها وبين تلك الصناعة)) (66) اما السكاكي فينقل لنا قصة الرفقاء الاربعة الذين طلع عليهم البدر بسناء , فذهب كل منهم يمدح ضياءه ويثني عليه من خلال صوره من نسيج مخيلته الشخصية . فأما صانع السلاح فشبهه بالترس المذهب واما الصائغ فشبهه بالسبيكة من الابريز واما البقار فشبهه بالجبن الابيض واما المعلم فشبهه برغيف احمر يصل اليه من بيت مرؤة (67) فكل واحد من هؤلاء انما امتاح من افضل ما في خزانة صورة المركبة بحسب مقامه وعلى نسق مقتضى حاله .

وان كان ما ذكرناه يشكل جوانب مهمة من مقامات المبدع فلا شك في كون اغراض الكلام – ايضا – عنصرا ضروريا في رسم معالم تلك المقامات , مما سيعني اشتراكها في توجيه دلالات النص وجهة معينة تناسب وتلك الاغراض .

فلقد اكدت النظرية البلاغية على ان لكل غرض متطلباته التي ينبغي على المبدع ان يدركها فيوفيها حقها , فلا بد ((للمتكلم ان يعرف اقدار المعاني ...فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما . حتى يقسم اقدار الكلام على اقدار المعاني))(68) بل ان المعرفة بدقائق الاغراض ليعد من اوائل ما تتطلبه عملية الابداع ((فان نسب ذل وخضع وان مدح اطرى واسمع وان هجا اخل واوجع وان فخرخب ووضع وان عاتب خفض ورفع وان استعطف حن ورجع ...)) (69) فقد اجتهد البلاغيون في ان يسنوا للمبدعين

وصفات معينة فيما يعتمد في كل غرض من اغراض الكلام ففي المديح مثلا ((يجب ان تكون الفاظ المديح ومعاينة جزلة مذهوبا بها مذهب الفخامة)) واذا نسب ((فيحتاج ان يكون مستعذب الالفاظ حسن السبك حلو المعاني ...)) وان دخل في الرثاء ((فيجب ان يكون شاجي الاقاويل مبكي المعاني مثير للتباريح ...)(70) ولم تكن نصائح البلاغيين لتتوقف عند الشعراء من المبدعين , بل تجاوزتهم الى اصحاب الكتابة والنثر ايضا . فقد خصت البلاغة كل غرض من اغراض الرسائل بجملة من شروط الانتاج . فما يكتب عن السلطان مثلا ((في امر الاموال وجبايتها واستخراجها , فسبيل الكلام ان يقدم فيها ذكر ما راه السلطان في ذلك ودبره ثم يعقب بذكر الامر بامتثاله ...)) وسبيل ما يكتب في الشكر ((الا يقع فيه اسهاب ... ولا يحسن منه ان يستعمل الاكثار من الثناء والدعاء ...)) اما يكتبه التابع الى المتبوع فلا ((يكثر من شكاية الحال ورقتها ...)) اما في الكتابة عند الاعتذار من شيء فعليه ((ان يتجنب فيه الاطناب والاسهاب الى ايراد النكت التي يتوهم انها مقنعة في ازالة الموجدة ...))(71) وفي هذا الموضع المحت البلاغة الى ان مراعاة مقام المبدع والنظر الى مقتضى حاله سوف يستدعى نوعين من المعاني . فقد لا يتطلب المقام ازيد من معنى حقيقي يكون على مقتضى الظاهر وهو اصطلح عليه المعجم البلاغي بـ(فائدة الخبر او لازم الفائدة) . وفي تارة اخرى قد ينهض الحال بلون مغاير من المعاني خارج عن مقتضى الظاهر وهو ما اصطلح عليه بالاغراض المجازية او معنى المعنى (72) والنمط الاخير من المعاني هو مطلب المبدعين ومضمار التنافس بينهم و ((متى وقع عند النظار موقعه استهش الانفس وانق الاسماع وهز القرائح ونشط الاذهان ...)) (73) كما لم يألوا البلاغيون- على اختلاف مشاربهم الفكرية . وتنوع ازمانهم – جهدا في استقصاء جميع خواص تراكيبه وتأويل ما يمكن الاهتداء اليه من معانيه الجديدة . وملاحقة ما يحققه لصناعة المعاني من فائدة الاقناع والامتاع معا . وعلى الرغم من هذا الاهتمام المتميز بدور مقامات المبدع في صناعة المعنى , فنحن لا نجافي الحقيقةاذا قلنا ان جل عناية الدرس البلاغي انما كان منصبا على الذات المتلقية , فجاء حضورها قويا منذ لحظات الوعي الاولى بالبلاغة علما مستقلا في هويته عما سواه من علوم العربية .

فالمتقصي لدلالة مفردة (البلاغة) وتطورها , يقف امام حضور واضح للذات المتلقية سواء اكان ذلك الحضور باللفظ الصريح ام حضورا ضمنيا . فمما جاء في كتاب البيان والتبيين , منسوبا الى العصر الاموي سؤال معاوية بن ابي سفيان لصحار بن عياش : ما هذه البلاغة التي فيكم ؟ قال : ((شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا)) (74) لا شك ان ما يخرج من الصدور فتنطق به الالسن لابد من مستمع يلتقطه وفي القرن الثاني للهجرة يجيب ابن عبيد احد رجال المعتزلة وزهادها الورعين عن سؤال : ما البلاغة ؟ وبعد سلسلة من الاجابات يأتي قوله : انك اذا اوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين وتخفيف المؤونة على المستمعين وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين ... كنت قد اوتيت فصل الخطاب ...))(75) ان (المتلقي) عند هذا العلم المعتزلي كان حاضرا بلفظة الصريح ولسوف يظل كذلك عنصرا مهما تقوم عليع النظريةالبلاغية عند كل علماء البلاغة من المعتزلة . وفي الطليعة منهم ابو عثمان الجاحظ الذي قام على (المتلقي) معظم مادته البلاغية . وهذا ليس بالمستغرب على رجل من علماء الكلام الذين تدور جودهم في فلك المتلقي وكيفية التأثير العقلي عليه واقناعه (76) ومع تواصل الجهود البلاغية يبقى (المتلقي) ركنا مهما من اركان البحث البلاغي , ففي القرن الرابه للهجرة يطلع علينا ابو هلال العسكري برأيه في البلاغة قائلا ((البلاغة كل ما تبلغ به قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن)) (77) وعند عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس للهجرة , تطالعنا مفردة (السامع) او (المخاطب) بشكل متواتر في تحليلاته للخواص التركيبية اذ يعمد الى ربطها بهذه الشخصية ربطا جدليا جاعلا منها سببا مؤثرا في صناعة معنى النصوص ((ومعنى "القصد الى معاني الكلم"ان تعلم السامع بها شيئا لا يعلمه معلوم انك ايها المتكلم لست تقصد ان تعلم السامع معاني الكلم المفردة التي تكمله بها ...))(78) فعملية تشكيل المعاني التي يقوم بها المبدع لا يمكن لها ان تنجز الا بملاحظة دقيقة للطرف الاخر المقصود بالفائدة , فالمبدع مثلا عندما يقصد الى تقديم الفاعل على فعله فان عبد القاهر يخاطبه بقوله ((... انك اردت ان تحقق على السامع انه قد فعل وتمنعه من الشك فأنت لذلك تبدأ ذكره وتوقعه اولا ...في نفسه لكي تباعده بذلك من الشبهة وتمنعه من الانكار ومثاله قولك ((هو يعطي الجزيل)) و ((هو يحب الثناء)) ... تريد ان تحقق على السامع ان

اعطاء الجزيل وحب الثناء ودابه وان تمكن ذلك في نفسه))(79) وفي مرحلة التي سميت بمرحلة تقعيد البلاغة في القرن السادس للهجرة نلحظ السكاكي وكل من تابعه من اصحاب الشروح والتلخيصات . يضعون المتلقي ومقاماته في قلب العملية البلاغية حتى يكون ((مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال وعلى لا انطباقه)) وهكذا وجب على المبدع البليغ ان يستعين بعقله ويعتمد ذكاءه ليتعقب مقتضيات الاحوال فـ ((يعرف ايما حال يقتضي طي ذكره – المسند اليه – وايما حال يقتضي خلاف ذلك وايما حال يقتضي تعرفه مضمرا او علما او موصولا ... وايما حال يقتضي تنكره وايما حال يقتضي تقديمه على المسند وايما حال يقتضي تأخيره)) (80) فالسكاكي اذن يربط معاقد المعاني بمقتضيات احوال المتلقي ولما كانت مقاقات المتلقي متنوعة متباينة , فان مقامات الكلام تبعا لذلك سوف تختلف وتتغاير ((فمقام التشكر يباين مقام الشكاية ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ... وكذا مقام ابتداء الكلام يغاير مقام الكلام مع الغبي ولكل من ذلك مقتضى الاخر ...)) (81) .

لقد سمعت البلاغة العربية الى وضع مقامات المتلقي بالحسبان عند صياغة المعاني فالتفريط بها سيعني التفريط بالقيمة والبلاغة للنص كلية , ومن اجل عدم حدوث امثال هذه الاخفاقات جاءت نصيحة ابن رشيق للمبدع فـ((الفطن الحاذق يختار للاوقات ما يشاكلها وينظر في احوال المخاطبين فيقصد محابهم ويميل الى شهواتهم وان خالفت شهوته ويتفقد ما يكرهون سماعه فيجتنب ذكره ...)) (82) وفي موضع اخر من باب اداب الشاعر يتقدم ابن رشيق بنصيحة اخرى للمبدعين من الشعراء لا تكاد تبتعد كثيرا في دلالاتها عن نصيحة الاولى . اذ يقول ((وقد قيل :لكل مقام مقال وشعر الشاعر لنفسه ... غير شعره في قصائد الحفل التي يقوم بها السماطين ... لا يقبل من في هذه الا ما كان محككا , معاودا فيه النظر , جيدا لا غث فيه ... وشعره للامير والقائد غير شعره للوزير والكاتب ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ما تقدم ...)) (83)

وفي ضوء هذه النصائح وسواها نستطيع ان نلتمس التفسير البلاغي القائم على مراعاة مقتضى مقام المتلقي وحله لما يصنعه المبدع من معان ففي هذا السياق تأتي تلك القصيدة التي انشدها الشاعر بشار لخلف الاحمر وفيها قوله :

بكرا صاحبي قبل الهجير ان ذاك النجاح في التبكير

فاعترض خلف قائلا : لو قلت يا ابا معاد مكان ((ان ذاك النجاح)) : بكرا فالنجاح , كان احسن , فقال بشار :انما بنيها اعرابية وحشية .. كما يقول الاعراب البدويون ولو قلت : بكرا فالنجاح , كان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذاك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة . (84)ان انحياز بشار الى هذا النمط من الصياغة انما ياتي متناغما مع مقام نوعين من المتلقين كما يبدو لنا فالمتلقي الاول هو من كان مقصودا بالمعنى , فعلى وفق مقتضى حاله اذ هو عرابي يستشرف القصد استشراف المتحير الذي يميل بين اقدام للتلويح واحجام لعدم التصريح , فقدم اليه العبارة مصورة بأداة التوكيد , مناسبة لمقامه . اما المتلقي الثاني فهو القارىء الناقد سلم بن قتيبة والذي يبدو ان القصيدة كانت موجهة اليه اذ عرف عنه تبصره بالغريب من المعاني , فرغب بشار في ان يقدم اليه ما يتوافق ومزاجه النقدي , فجاء بصناعته اعرابية وحشية (85) وفي موضع اخر من السياق نفسه حرص البلاغيون والنقاد سوية , على مطالبة الشاعر – كي يكون موفقا في مطالع قصائده وخواتمها – ان يأتي بها مطابقة كل المطابقة لمقامات متلقيه ومن وجهت اليهم هذه القصائد , فأشادوا ببعض هذه المطالع واصفين اياها بالجيدة لمجيئها منسجمة مع مقامات متلقيها ومبدعها معا. كمقدمات ابي نؤاس وما اشبه ذلك مما يطول ذكره (81) وعابوا كذلك على الكثير من الشعراء مطالعهم لانها لم تحقق قضية الترابط والانسجام بينها وبين مقامات المتلقين , مقدمة جرير التي خاطب بها عبد الملك : اتصحوا ام فؤادك غير صاح . ومطلع ذي الرمة في قصيدته التي انشدها امام الخليفة السابق نفسه : ما بال عينيك منها الماء ينسكب . وابتداء المتنبي عند اول لقائه بكافور :كفى بك داء ان ترى الموت شافيا . وعلى النسق نفسه درس البلاغيون والنقاد خاتمة القصيدة فاشترطوا فيها قيام التوافق بين مقامات المتلقي وما تقدمه من معنى فيرى العلوى ان من الواجب تضمن الخاتمة معنى يؤذن السامع بانه الغاية والمقصد والنهاية ومن احسنها عنده قول المتنبي :

وقد شرف الله ارضا انت ساكنها وشرف الناس اذ سواك انسانا

((فهذه الخاتمة اذا اقرعت سمع السامع عرف بها الا مطمع وراءها .. وهي الغاية المقصودة والبغية المطلوبة ...)) (87) ومع اتساع دائرة البحث

البلاغي اصبح [المتلقي]والعناية بأحواله الفكرية والثقافية الا دفعا لهذه الذات لتمارس دورها في صناعة المعاني فلا وجود لنص بليغ ومؤثر يقوم بمعزل عن متلقية عند جمهور البلاغين ولقد حاول بعض الباحثين المحدثين في البلاغة ان يعلو هذا الاهتمام الخاص بالمتلقي بأسباب دينية صرفة يقول د.محمد عبد المطلب: ((وربما كان الحاجز الديني احد العوامل الرئيسه التي دفعت البلاغيين والنقاد الى هذا الاتجاه بأعتبار ان البلاغة مراعاة مقتضى الحال وعندهم هي حال المخاطب لا المتكلم لانه ليس من المتصور عقلا ودينا ان يتناول هؤلاء المنظرون القران بأعتبار مصدرة ولذا اتجهت باحثهم الى ناحية الملتقى)) "88"

ولئن كنا متفقين مع الباحث فيما ذهب اليه من تبرير منطقي فنحن ننبة على مسألتين الاولى هي ان الدرس البلاغي العربي لم يكن متكئاً على النص القرآني فحسب ,بل انه انفتح على الوان مختلفة من النصوص كالشعر والنثر والخطابة وقد لعبت ايضا دورا مهما في توجيه مفرداته ولذلك فنحن نميل الى ترجيح علة اخرى لتبرير العناية المتزايده بالملتقى لدن البلاغة العربية فالبلاغيون قد امنوا بان النص ايا كان جنسة قراناً ام شعرا ام خطبة ام نثرا ماهو الاكائن لغوي , فهي مبعثة وبها يكون والبيان بالالفاظ يأتي في مقدمة اشكال البيان جميعا وهو انجح السبل ((لكشف قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع الى حقيقة ويهجم على محصولة))"89" اصبح والحال هذه لايمكن وجود نص لغوي الا بوجود ذات ملتقية وان عملية التلقي هي التي تبعث عملية الابداع وصناعة المعاني .

ان هذه المتابعة التي انجزها لعرض واقع المقام الحالي بطرفية المبدع والمتلقي ودورهما في صياغة المعاني ليست الا غيضا من فيض امتلأت به بطون المصادر البلاغية وان عملنا لم يكن سوى نقطة ضوء اجتهدنا من خلالها انارة جانب من جوانب بلاغتنا العربية وفي عودةٍ الى حديث البعد المقامي وانواعة نذكر هنا بالنوع الاخر للمقامات وهو المقام السياقي اللغوي الذي يعتمد على عناصر لغوية صرفة داخل النص من لفظة وتركيب وعبارة سابقة واخرى لاحقة ومن اللافت ان البلاغيين قد اولو هذه اللون من المقامات عنايتهم ايضا – منطلقين من مقولتهم :ان لكل كلمة مع صاحبتها مقام "90" محاولين صياغة مناهج مختلفة لدراسة اساليب الخطاب وابنية النصوص واثر ذلك كله في توجية

المعنى وتحديده :وقد تجلى ذلك في قراءاتهم المعمقة لانواع الاجراءات البلاغية لاسيما التي عدت خروجا على مقتضى الظاهر .ومع اهمية المقام السياقي في صناعة المعنى سوف نكتفي بهذه السطور المقتضية انسجاما مع مقصدية بحثنا التي اردنا لها ان تدور حول العناصر غير اللغوية ودورها في صناعة المعنى مرجئين النظر في المقام السياقي وتفاصيلة الى بحث اخر ان شاء الله تعالى ....

هوامش البحث

1. منهاج البلغاء :18
2. م.ن :19:18
3. فلسفه البلاغة بين التقنية والتطور :97
4. البيان والتبين :جـ 76/1
5. مفتاح العلوم :81
6. المثل السائر :جـ 1 /58
7. النقد البلاغي عند العرب الى نهاية القرن السابع للهجرة :35
8. التعريف يعود للرماني في ثلاث رسائل في اعجاز القران :75
9. علم اللغة ص 228
10. الاسس النفسية لاساليب البلاغة العربية :17
11. العمدة :جـ 116/1
12. كتاب الصناعتين :63
13. المثل السائر :جـ 120/1 ،وينظر م.ن جـ119/1،115،114
14. اسرار البلاغة :4
15. دلائل الاعجاز :49
16. م.ن 132
17. انظر :منهاج البغاء :40
18. م.ن :249
19. كتاب الصناعتين :139
20. اسرار البلاغة :118
21. تحرير التجبير :582
22. الاسس النفسية لاساليب البلاغة العربية
23. انظر :اسرار البلاغة :4
24. نقد الشعر :167
25. مفتاح العلوم :96
26. اسرار البلاغة :116-115
27. نقلا عن :التفكير البلاغي عند العرب :56
28. الموازنة :179
29. التفكير البلاغي عند العرب :568
30. دلائل الاعجاز :545 وانظر في موضوع نفسه م،ن : 411،412،364
31. م،ن 545بتصريف

32. ينظر العمدة جـ 1 ص 199
33. سر الفصاحة :33
34. نقلا عن :بنية العقل العربي جــ 2 /45 انظر ايضا :النحو والدلاله :84
35. المغني جـ 15 /161 انظر ايضا م،ن : جـ 16 /347 ،والاتجاه العقلي في التفسير :86_87
36. المغني جـ 15 /187
37. منهاج البلغاء :12 وانظر رايه في الاقاويل الشعرية :217،337
38. م،ن :20
39. انظر م،ن :25،22،20
40. المقاربة التداولية :19
41. الحيوان جـ 1 /282
42. م،ن جـ 39/3
43. العمدة جـ 115/2
44. كتاب الصناعتين :451
45. م .ن : 75
46. البيان والتبين جـ 136/1
47. مفتاح العلوم :84 وانظر الايضاح :9
48. الايضاح 9
49. م ن :12
50. انظر :الخطابة لارسطو ت :بدوي طبانة :171-174
51. نظرية النحو العربي :63 وما بعدها
52. نقلا عن النحو والدلالة :124
53. الموشح :246 -247
54. شرح ديوان الحماسة :23
55. انظر هذه الصحيفة كاملة في البيان والتبين جـ 135/1 وما بعدها
56. البلاغة العربية قراءة اخرى :210
57. العمدة :جـ 229/1
58. انظر كتاب الصناعتين :104
59. منهاج البغاء :170
60. الموشح :307
61. البيان والتبين :جـ 144/1
62. الوساطة :17-18
63. م ن

64. العمدة :جـ214/1
65. انظر الشعر والشعراء ص 79
66. الحيوان جـ 368-366/3
67. انظر مفتاح العلوم :123 ،الايضاح جـ 163/1
68. البيان والتبين جـ 139-138/1
69. العمدة جـ199/1
70. منهاج البلغاء :351 -352
71. كتاب الصناعتين :160 وما بعدها
72. تنظر مفتاح العلوم :77-78
73. م ن :83
74. البيان والتبين جـ 1 /96
75. م ن :114
76. انظر م،ن:115،87،93
77. كتاب الصناعتين :16
78. دلائل الاعجاز :412
79. م،ن 129
80. مفتاح العلوم :84
81. م،ن 81
82. العمدة جـ 223/1
83. م،ن 199
84. دلائل الاعجاز :272-273
85. انظر :م،ن :272
86. انظر العمدة جـ1 ص 217وما بعدها
87. الطراز 185/3وانظر ايضا البلاغة والاسلوبية 176
88. البلاغة والاسلوبية :185 وانظر للمؤلف ايضا البلاغة العربية قراءة اخرى :212
89. البيان والتبين جـ 1،ص 76
90. انظر مفتاح العلوم :80

مصادر البحث ومراجعه :

- الاتجاه العقلي في التفسير –دراسة في قضية المجاز في القران عند المعتزلة د.نصر حاد ابو زيد –دار التنوير للطباعة والنشر –ط 2 /1983
- اسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني –تخ /حقيق هـ -ريتر –اسطنبول مطبعة وزارة المعارف 1954
- الاسس النفسية لاساليب البلاغة العربية د.مجيد عبد الحميد ناجي – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر –بيروت طـ 1 1984
- الايضاح في علوم البلاغة – الخطيب القزويني – تحقيق لجنة من اساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الازهر –مطبعة السنة المحمدية – القاهرة
- البلاغة العربية –قراءة اخرى –محمد عبد المطلب – الشركة المصرية العالمية للنشر –لو نجمان 1997
- البلاغة والاسلوبيه- محمد عبد المطلب الهياة المصرية العامة للكتاب 1984
- بنية العقل العربي – محمد عابد الجابري – مركز دراسات الوحدة العربية نقد العقل العربي (2)
- البيان والتبين –ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ – تحقيق وشرح عبد السلام هارون ط 3 – مكتبة الخانجي –القاهرة
- تحرير التجير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القران ابن ابي الابع المصري –تحقيق دزحنفي محمد شرف – القاهرة -1963
- التفكير البلاغي عند العرب اسسه وتطوره الى القرن السادس –حمادي صمود – منشورات الجامعة التونسية /1981
- ثلاث رسائل في اعجاز القران الكريم –حققها محمد خلف اللع و د.محمد زغلول سلام /دار المعارف بمصر ط 2 1968
- الحيوان –عمرو بن بحر الجاحظ – عبد السلام هارون –دار الكتاب العربي – بيروت ،ط 3 ،1963
- الخطابة لارسطوت بدوي طبانة –دار القلم –بيروت 1979
- دلائل الاعجاز –عبد القاهر الجرجاني –قراه وعلق عليه محمود محمد شاكر – مكتبة الخانجي – القاهرة
- سر الفصاحة –ابن سنان الخفاجي شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي /مصر 1953
- شرح ديوان الحماسة ابو علي احمد بن محمد بن الحسن المرزوقي نشرة احمد امين وعبد السلام هارون ط،1 القاهرة 1951

- الشعر والشعراء ابن قتيبة – تحقيق احمد محمد شاكر – دار المعارف القاهرة 1966
- الطراز المتظمن لعلوم البلاغة وحقائق الاعجاز د.يحيى بن حمزة العلوي –مطبعة المقتطف – مصر /1914
- علم اللغة – مقدمة للقاريء العربي – محمود السعران – دار المعارف /الاسكندرية ،1982
- العمدة في محاسن الشعر وادابة ونقدة – ابن الرشيق القيرواني تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد –بيروت ،ط 4 /1972 ،دار الجيل
- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطرز – رجاء عيد نمنشاً المعارف الاسكندرية 1984
- كتاب الصناعتين –ابو هلال العسكري – تحقيق علي محمد البجاوي وحمد ابو الفضل ابراهيم مطبعة البابي الحلبي ط 2
- المثل السائر في ادب الكتاب والشاعر ضياء بن الاثير تحقيق احمد الحوفي وبدوي طبانة مكتبة نهضة مصر – القاهرة ط 1 /1959
- المغني في ابواب التوحيد والعدل القاضي عبد الجبار الاسد ابادي الجزء الخامس عشر ,تحقيق محمود الخضيري ومحمود قاسم /1965 والجزء السادس عشر ،تحقيق امين خولي /1960
- مفتاح العلوم ابو يعقوب السكاكي – ط 1 مطبعة البابي الحلبي 1937
- منهاج البلغاء وسراج الادباء – حازم القرطجاني تحقيق الحبيب ابن الخوجة - تونس 1966
- الموازنة بين ابي تمام والبحتري ،الاقدي ،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط3 /1959 مصر
- لموشح – المرزباني تحقيق علي محمد البجاوي دار نهضة مصر /1965
- النحو والدلالة – مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي – محمد حماسة عبد الطيف ط 1 1983 القاهرة
- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث نهاد الموسوي المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت /1980
- النقد البلاغي عند العرب الى نهاية القرن السابع للهجرة –عبد الهادي خضير نيشان –رسالة دكتوراه قدمت الى كلية الاداب –جامعة بغداد /1989
- نقد الشعر ،قدامة بن جعفر تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ،القاهرة 1963

- الوساطة بين المتنبي وخصومه – القاضي الجرجاني ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ، ط 3 القاهرة